التطور اللغوي في العربية المعاصرة
إطلالةٌ عامّة

أ. د. عبد الناصر إسماعيل عسّاف(*)

تتحرّك المحاضرة بموضوعها بين قطبين لا يخلو أحدُهما مصطلحاً أو مفهوماً من خلاف: الأوّل التطوُّر، والآخر العربيّة المعاصرة، وتدور في فلك قضيّة تتناهبها آراءٌ تصل أحياناً إلى حدّ التناقض. ولهذا وذاك قد تجد الإجماعَ في بعض مكوّناته العلميّة والمنهجيّة يفرّ ويترك مقعده للاختلاف.

*** التطوُّر:**

التطوّر مصدر قياسيّ للفعل «تَطَوَّر»، وهو فعلٌ يدلّ ببنيته ودلالته الاستعماليّة على الانتقال والتحوّل من طور إلى طور، انتقالَ تغيّر. وقد لهِج به المحدثون، ولاسيّما بعد ظهور بعض الآراء والنظريات التي عُنيت برصد التغيّرات الاجتماعية والسياسية، أو بتقديرات خلق الإنسان وتحوّلاته كنظرية التطوّر لـ(دارون).

وهذا اللفظ فعلاً ومصدراً ومشتقّاتٍ ممّا لم ينتهِ إلينا فيه دليل على استعمال العرب له في زمن الفصاحة الأولى. ومن هنا منع بعضُ المحدَثين

(*) ألقى عضو مجمع اللغة العربية بدمشق الأستاذ الدكتور عبد الناصر عساف هذه المحاضرة بتاريخ ٣١/ ٥/ ٢٠١٧م.

استعمالَه بحُجّة مخالفة المنقول والمسموع؛ لأنّ في اللغة من الأفعال وتصريفاتها ما يُفيد هذا المعنى، ومنها تحوَّل وتغيَّر وتبدّل.

على أنّ ذلك لا يعني أنّ هذا الاستعمال مُحْدَث كما يحلو لبعض الباحثين أن يرى؛ لأنّ هذه الكلمة فعلاً ومصدراً ممّا استعمله متأخّرو القدماء. ولك أن تقول باطمئنان: إنّ هذه الكلمة كانت مستعمَلة مستقرّة قبل نحو ثمانية قرون على الأقلّ. فقد وردت مثلاً في كلام أبي الحسن الحَرَالِيّ (ت ٦٣٨هـ):

«قال في كتابه (المفتاح) ما نصّه: الباب الرابع في رُتَب البيان عن تَطَوُّر الإنسان بترقّيه في دَرَج الإيمان وتردّيه في دَرَك الكفران:...»[(١)].

ووقعت أيضاً في كلام أبي حيّان الأندلسيّ (ت ٧٤٥هـ) وابن عرفة (ت ٨٠٣هـ) وابن خلدون (ت ٨٠٨هـ)[(٢)].

ونصوصُ هؤلاء الأئمّة دالّةٌ على أنّ مصطلحَ «التطوُّر» لم يغادرِ المعنى اللغويَّ الذي تنبئ عنه صيغة الفعل والمصدر من التحوّل والانتقال من حال إلى حال، ومن طور إلى طور، دون أن تلابسَه أحكامُ قيمة. فهو بعبارة أخرى: مصطلحٌ محايد، خالٍ في ذاته وأصله من معنى الحُسْن والرقيّ. وعلى هذا جرى مجمع اللغة العربيّة في القاهرة إذ أقرَّه وأثبته في المعجم الوسيط، بعد الوثوق من صحته.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، تح عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٩٥، ٣/ ٣٣٩، وطبعة دار الكتاب الإسلامي - القاهرة، ٥/ ٨١٠.

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية،٥/ ٤٦٠؛ وتفسير ابن عرفة، ابن عرفة، دار الكتب العلمية، ٤/ ٩٩؛ و ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ابن خلدون، تح خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٩٨٨، ٢/ ٨٦.

ورد في المعجم الوسيط (طور) في تبيين المعنى اللغويّ والاصطلاحيّ: «تطوَّر: تحوَّلَ من طور إلى طور (مج). (التطوُّر): التغيُّر التدريجيّ الذي يحدث في بنية الكائنات الحيّة وسلوكها؛ ويُطلَق أيضاً على التغيّر التدريجي الذي يحدث في تركيب المجتمع أو العلاقات أو النظم أو القيم السائدة فيه».

ولذلك يمكن القولُ: إنّ دلالة مصطلح «التطوّر» وتصريفاته على التقدّم والرقيّ دلالة عرفيّة مُحْدَثة لا تخلو من قيمة مُضافة ربّما خلعتها عليها بعضُ النظريات والأفكار الاجتماعيّة والفلسفيّة. على أنّ دلالة التطوّر الاقتضائيّة أو الضمنيّة على التقدّم في مجرى الزمن وحركة الحياة والتاريخ ليست مصادرةً تهدم ذلك وتنقضه. ومن هنا ليس للمرء أن يحكم على هذه الصورة أو تلك من صور التطوّر بقيمة الترقّي إلّا إذا كانت بنّاءة تُفضي إلى فائدة في متعلّقاتها، وكانت خطوة في الطريق الصحيح والسعيِ المثمر. وإلّا فهل لك أن تعدّ كلّ صورة من صور التطوّر في واقع العالم المعاصر وجهاً من وجوه التقدّم والرقيّ، وفيها عشراتُ الصور التي لا تعدو عند التأمُّل والتحقيق أن تكون ضرباً من النكوص والقهقرى؟!.

* العربيّة المعاصرة:

«العربيّة المعاصرة» مختصرٌ من مصطلح «اللغة العربيّة المعاصرة»، وهو أحد المصطلحات أو الأسماء التي سُمِّيَت بها اللغةُ التي يستعملها العرب المعاصرون. وهو من أكثر المصطلحات شيوعاً ودقّة تعبير. ووصفُ «المعاصرة» فيه لا يؤذن بانقطاع حبل مسيرة اللغة العربيّة، واستقلال صورها بعضها عن بعض بحسب مراحلها، بل هو وصف زمنيّ مناسب لهذا الواقع

اللغـويّ المحـدّد[٣]، لا ينفـي أن تكـون هـذه اللغـة التـي يتـداولها العـرب المعاصرون امتداداً للغة العربيّة الفصحى، وإن كـان فيهـا شـيء مـن اختلاف وتغيّر مردُّه إلى ما يصيب اللغة العربيّة كسائر اللغات من تطوّر طبيعـيّ وحتمـيّ، وما ينتهي إليها من آثار اللغات الأخرى واللهجات أو العامّيات المعاصرة.

وقـد حـاول بعـضُ البـاحثين المختصّـين تعريـفَ هـذه اللغـة العربيّـة الفصيحة المعاصرة، مستندين إلى الاستعمال اللغـويّ الفعلـيّ للمعاصـرين، والخصائص البِنَوِيّة لهذه اللغة المتداولة، وجملـة مـا قيـل عنهـا، فكـان مـن ذلك تعريفات عدّة، منها مثلاً هذان التعريفان:

قال د. محمّد حسـن عبـد العزيـز: «ومـن جملـة مـا قيـل عـن (العربيّـة المعاصرة) نستخلص التعريف الآتي: «لغة فصـحى، مكتوبـة، تُسـتخدَم فـي التعليم وفي العلم وفي الأدب وفي الصحافة، وهي اللغة الرسميّة المشـتركة في العالم العربي اليوم».»[٤].

وقال د. جمعان بن عبد الكريم: «اللغة العربيّة الفصيحة المعاصرة: لغـة مكتوبة منطوقة ذات خصائص صـوتيّة وصـرفيّة ونحويّـة ودلاليّـة وأسـلوبيّة معيّنة، تتّصل مع الفصحى القديمة في كثيـر مـن خصائصـها، وتتواصـل مـع عصرها في خصـائص أخـرى، تتعلّـق بالحتميّـة التطوريّـة للغـات خصوصـاً التطوّر الدلالي»[٥].

---

(٣) انظـر: اللغـة العربيّـة الفصـيحة المعاصـرة: محاولـة لمقاربـة المصـطلح والمفهـوم، د. جمعان بن عبد الكريم، مجلة اللسان العربي، ع ٦١، ٢٠٠٦، ص ١٧.

(٤) خصائص العربيّة المعاصرة، د. محمد حسن عبد العزيز، مجلة اللسـان العربـي، ع ٤٥ ، ١٩٩٨، ص ١٤٣.

(٥) اللغة العربيّة الفصيحة المعاصرة: محاولة لمقاربة المصـطلح والمفهـوم، مجلـة اللسـان العربي، ع ٦١، ٢٠٠٦، ص ٣٠.

* التطوُّر اللغويّ:

التطوّر في اللغة سُنَّة من سننها، فهي عرضة للتغيّر في مختلف عناصرها: أصواتها ومفرداتها وتراكيبها ودلالاتها. وعلاقتها بالمجتمع والفكر والحضارة والعالم كلّه ممّا يجعلها كالكائن الحيّ تخضَع لما يخضع له من نموّ وتطوّر. ومستويات اللغة ليست سواءً في قبول التطوّر وسرعته، فهو يختلف من مستوًى إلى آخر كما يختلف في سرعته ودرجته من زمن إلى آخر.

واللغة العربيّة كسائر اللغات عرضةٌ للتغيّر في كلّ ما فيها، فهي ليست لساناً فذّاً بين الألسن، والتغيّر فيها لذلك لا بدّ منه، لكنّه تطوّر يغلب عليه البُطء. وهو شيء لم يغادرها في مرحلة من مراحل حياتها وتاريخها المتطاول. وكان في كلّ ذلك طاقةَ خلقٍ وتوليد دالّةً على مرونة العربيّة وطَواعِيَتِها في النظام الصرفيّ والدلاليّ والتركيبيّ، وقدرتها على التجدّد والنمو، وتحقيق حاجات مستعمليها، ومواكبة متغيّرات الزمان وحركة الفكر والحياة والحضارة.

واللغة العربيّة الفصيحة المعاصرة، وهي قِطعةٌ من العربيّة لا تنفصل عنها، وما قد يتراءى لك فيها مختلفاً عنها لا يكاد يساوي شيئاً ممّا يجمعها بها ويشدّها إليها = شاهدٌ قريب منّا نمسكه بحواسّنا دالٌّ على ذلك التطوّر والنموّ. والتطوّرُ الذي يبدو للباحث في العربيّة المعاصرة في مستويات اللغة كافّة إمّا أن يكون تغيُّراً نسبيّاً، وإمّا أن يكون تغيّراً كلّيّاً، فقد يكون ذلك في إحداث ما لم يكن مستعمَلاً معهوداً في زمن الأوّلين من تركيب أو دلالة أو كلمة، أو في اختلاف نسبة استعمال المستعمل القديم قلّةً أو كثرةً.

* التطوّر الصوتيّ:

أنكر بعضُ الباحثين وقوعَ التطوّر الصوتيِّ في اللغة العربيّة إنكاراً

نازعتهم فيه الغيرةُ، وناقش أ. محمّد الأنطاكي «بعضَ أولئك الباحثين[٦] من أولي الغيرة على العربيّة والاعتزاز بها الذين يَرَون أنّ أصواتَ العربيّة الفصحى ثابتةٌ لم ينلها التطوّرُ، وأنّنا ننطقها اليوم كما كان العرب ينطقونها منذ أربعةَ عشرَ قرناً على الأقلّ، وينتهون من ذلك إلى أنّ ما استنبطه علماءُ الغرب من قانون التطوّر الحتميّ الذي يصيب أصوات اللغة لا ينطبق إلّا على ألسنهم وحدَهم»؛ ورأى أنّ الغيرة على العربيّة ليست مسوِّغاً للخروج عن جادّة العلم الصحيح، فليست العربيّة شيئاً فذّاً بين الألسن، إنّها لسان من ألسُن خَلْقِ الله جميعاً، ينطبق عليها ما ينطبق على غيرها، وتخضع للقوانين نفسها التي تخضع لها الألسن.

ثمّ بيّن أنّ واقع الاستعمال اللغوي يدلّ على شيء من اختلاف في الأداء الصوتيّ، ومثّل لذلك بما رآه، ومنه اختلافُ نُطْق صوت الضاد اختلافاً كبيراً عمّا ذكره العلماءُ لهذا الصوت من صفات. وانتهى إلى أنّ العربيّة – مع ذلك – محافِظةٌ، تميّزت خلال تاريخها الطويل بشدّة المراس وعدم الانقياد والاستسلام للتطوّر العنيف؛ وأنّ ما أصابها من تغيّر خلال عمرها الطويل لا يُعَدّ شيئاً مذكوراً إذا نُسِب إلى ما أصاب غيرَها من الألسن، ولكنّ الثباتَ الذي يزعمونه شيءٌ، والمحافظةَ التي يقول بها شيءٌ آخرُ مختلف[٧].

وقولُ الأنطاكي في رأيي صحيح، فالتغيير في صفات بعض الأصوات ومخارجها أحياناً واقعٌ لا مفرَّ منه، يؤكّده تأمُّلُ واقع الاستعمال ومعارضتُه بما انتهى إلينا من نصوص علماء العربيّة والقراءات. ومثلُه يُبين عن شيء

(٦) نصّ الأنطاكيُّ في الحاشية على أنّ من أولئك الباحثين الأستاذَ محمّد المبارك في كتابه (فقه اللغة وخصائص العربية) ص ٢٥١ وما بعدها.

(٧) دراسات في فقه اللغة ، محمد الأنطاكي ، دار الشرق العربي – بيروت ، ط ٤ ،ص ٢٢٤-٢٢٥.

من اختلاف لا يمكن إنكارُه. لكنّ دقّةَ ذلك الاختلاف وقلّتَه قلّةً تقارب النّدرةَ، بإزاء غلبة الثبات، وذلك ما يجعلُ من الصعب إدراكَه = تُخيِّلان للباحثين الثباتَ وانعدامَ التغيّر.

ومن مظاهر التطوّر الصوتيّ النادرةِ التي تبدو للمتأمّل في العربيّة المعاصرة اصطباغُ الجيم بصفة الأصوات الشمسيّة عند اقترانها بـ «أل» التعريف، يقولون: الجَّبَل، والجَّمال، والجُّندي،.... ولو نطقوا الجيم على أصلها العربيّ القديم لقالوا: الْجَبل، والْجَمال، والْجُندي،.....

وهذا من النُّطق الطاغي الغالبِ على الناس في زماننا، تسمع ذلك من الأميّ والمثقّف والمتعلّم والعالم. لا فرق في ذلك بينهم إلا في النادر. وهو عندي أثرٌ من أثر اللهجات والعامّيّات المعاصرة.

وهذا التغيّر ترى فيه ما نصّ عليه العلماء من خصائص التطوّر الصوتي من بطءٍ وتدرّجٍ، وأنّه غير شعوريّ، فهو تلقائيٌّ غيرُ متعمَّد، ولا دخلَ للإرادة الإنسانيّة فيه، وأنّه مطّرد غير فرديّ (٨).

* التطوّر الصرفيّ:

إذا نظرت في مدوّنة العربيّة المعاصرة نظرَ الباحث الفاحص أسلمك نظرُك بلا شكّ إلى القطع بأنّ فيها من مظاهر التطوّر الصرفيّ حظّاً وافراً، وأنّ أكثرَه عند التحقيق ينبثق من «جَوَّانيّة» اللغة العربيّة وإمكانيّاتها الخلّاقة.

ومن صور التطوّر اللغوي في المستوى الصرفي في العربيّة المعاصرة كثرةُ استعمال المصدر الصناعيّ. وليس من المغالاة في شيء إذا قلت: إنّ المصادر الصناعيّة التي استُعمِلَتْ في العربيّة المعاصرة في نصف قرن أو بِضعة عقود أكثرُ

---

(٨) انظر: التطوّر اللغوي، د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي – القاهرة، ط٣، ١٩٩٧، ص ٢٠-٢٣.

ممّا كان في العربيّة من ذلك في قرون. ولك أن تدرك ذلك إذا نظرت فيما انتهى إليه بعضُ من درس المصدرَ الصناعيَّ عند فلاسفة الإسلام حتى نهاية القرن الرابع الهجري، وما انتهى إليه بعضُ من درس المصدر الصناعيَّ في العصر الحديث، فقد كان مجموع المصادر الصناعية التي استقصاها أحدُ الباحثين في مؤلّفات فلاسفة الإسلام: الكنديّ والفارابيّ وابن سينا (١٨٢) مئة واثنين وثمانين مصدراً، وهو عددٌ قليل بالنسبة إلى كثرة مؤلّفاتهم الفلسفية، في حين كان عددُ المصادر الصناعيّة التي رصدها باحثٌ آخرُ في ستِّ صحف مصريّة رسميّة في سنتين: ما بين عام ١٩٩٦ وعام ١٩٩٨ (٥٠٩) خمسَ مئة وتسعةَ مصادر(٩).

ومن تلك الصور الانصرافُ عن صيغ التصغير الصرفيّة في التعبير عن معاني التصغير والتقريب والتقليل، والتعبيرُ بصيغ التصغير أبلغُ في الدلالة وأوجز في اللفظ. فالسمةُ الغالبة على اللغة المعاصرة في هذا الاستغناءُ عن تلك الصيغ بالوصف، فيقولون: ورقة صغيرة، لا وُرَيقة، وكلمة قصيرة، لا كُلَيمة، ولحظة قصيرة، لا لُحَيظة، وذهب قبل العصر بوقت قصير، لا قُبَيل العصر، وهكذا.....

وقد وصم بعضُ الباحثين ذلك بالضعف؛ لما تؤدّيه هذه الأبنيةُ (صيغ التصغير) من دلالات تعبّر عن المعنى بلفظها، وتحقّقه من إيجاز؛ لأنّ البناء الصرفيَّ يغني عنِ اللفظ الكثير؛ وعدَّ اختفاءَ التصغير من الخطاب المعاصر اكتفاءً بالوصف من أثر اللغات الأجنبيّة (١٠).

---

(٩) انظر: المصدر الصناعي في العربية: دراسة صرفية دلالية من خلال مؤلفات الكندي والفارابي وابن سينا، د.محمد عبد الوهاب شحاتة، دار غريب - القاهرة ، ١٦٨-١٦٩، والمصدر الصناعي والصحافة المصرية (١٩٩٦-١٩٩٨)، مجلة علوم اللغة، م ٢، ع ١، ١٩٩٩، ص ٢٤٧.

(١٠) البناء الصرفيّ في الخطاب المعاصر، د. محمود عكاشة، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي - القاهرة، ٢٠٠٩، ص ١٤٨.

ومن مظاهر التطوّر الصرفيّ في العربيّة المعاصرة توليدُ عشراتِ، بل مئاتِ المفردات، بالاشتقاق والمجاز والترجمة، للتعبير عمّا استجدّ. وبذلك جادت علينا العربيّةُ المعاصرة بألفاظِ: الطِّباعة، والسُّعال، والطيّار، والمِصْعَد، والحاسوب، والناسوخ، والمَجْمَع، وصوّتَ، وابتكر، واستقال، والبيئة، والمَلحمة، والدرّاجة، والدبّابة، والمِذياع، والصاروخ، وجنون البقر، والفأرة (فأرة الحاسوب).

ومن تلك المظاهر والصور كثرةُ الاشتقاق من المعرّب والدخيل وأسماء الذات، نحو: أتمت، وبرمج، وبستر، وجيَّر(حوَّلَ)، ودبلج، ودشّن، وقرصن، ومغنط، وقنَّن، وفلتر،.....

ومن ذلك أيضاً إحياءُ بعضِ الصيغ المهجورة في التعبير عن بعض المستجدّات، فكان لصيغة «فَعْلَن» وتصريفاتها جولةٌ وصَولةٌ في نحو: أنسنَ الشيء: إذا صبغه بشيء من حقيقة الإنسان وطبيعته، وعلمن: إذا جرّد العلمَ من صفته الدينيّة، وعقلن الشيء: إذا جعله علميّاً وخلع عليه سمةَ العقل[(١١)]. وقُلْ مثلَ ذلك في صيغة «تَمَفْعَل» وتصريفاتها، نحو: تمركز، وتموضع، وتمحور، وتمرحل، وتمفصل، وتمترس؛ وصيغة «فَوْعَلَ»، نحو: عولم، وحوسب، وقولب....

ومن مظاهر التطوّر الصرفيّ في العربيّة المعاصرة تأنيثُ بعضِ الصفات التي يستوي فيها المذكّرُ والمؤنّث إذا أُريد بها المؤنّث، فيقولون: بلادٌ معطاءة، وبنتٌ مِهذارة، وفتاة طَمُوحة، وامرأة جريحة، وإدارة غَيُورة. ولو جارى المتكلّمون قواعدَ العربيّة واستعمالَ العرب الفصحاء لقالوا: بلاد

(١١) انظر: خصائص العربية المعاصرة، د. محمد حسن عبد العزيز، مجلة اللسان العربي، ع ٤٥ ، ١٩٩٨، ص١٥٤.

مِعطاءٌ، وبنت مِهذارٌ، وفتاة طَموحٌ، وامرأة جريحٌ، وإدارة غَيُورٌ.

و لعلّ المناسبَ التزامُ التذكيرِ إلّا إذا خلا السياقُ ممّا يُبينُ عن جنس المقصود المؤنّث، فيحسنُ حينئذ تأنيثُ هذه الصيغ إذا أُريد بها المؤنّث(١٢). ولا شكّ أنّ أَمْنَ اللَّبس مَدعاةُ إباحةٍ وتسويغٍ تدعو أحياناً إلى خَرْقِ القاعدة. وربّما وجد المرءُ في كلام القدماء ونصوصِ العلماء دليلَ جواز وإباحةٍ لهذا الاستعمال عند فقدان القرينة الدالّة المُزيلة للَّبْس.

*** التطوّر الدلاليّ:**

التطور الدلالي بمجازه واتّساعه وتخصيصه وتعميمه ارتقاءً بالمعنى أو انحطاطاً به ممّا لم يفارق اللغة العربيّة في تاريخها المتطاول. ولو نظرت في دلالة الألفاظ التي تخرج من جذر أو مادّة واحدة في معجم من المعاجم لأدركت ذلك. وهذا الضرب من التطور ربّما كان أنأى الضروب من هيمنة المعياريّة وما يصدر عنها من الاعتراض والردّ والنقد، في وقت كان جمهرة من علماء العربيّة ينظرون فيه إلى ضروب التغيّر الأخرى بشيء من شزر وصغار تمليه عليهم تلك المعياريّة، ينتهي بهم بأَخرة إلى رميٍ ما يصدر عن تلك الضروب باللحن والخطأ والضعف.

وامتداد هذا التطوّر في بُنيان العربيّة المعاصرة ممّا لا يُخطئه الباحثون. وربّما كان هذا التطوّرُ في العربيّة المعاصرة أوسعَ ألوان التطوّر. وهو وجهٌ بيّنٌ من وجوه التطوّر الداخلي للغة، دالّ على تلاقح اللغة والفكر والحياة، ومثالٌ شاهد على تغيّر المعاني مع ثبات البُنية بتغيّر الزمن.

وهذه أمثلة من أمثلة التطوّر الدلالي في العربيّة المعاصرة:

فمن أمثلة الانتقال بالدلالة على وجه المشابهة والمجاز قول

---

(١٢) انظر: المرجع السابق، ص ١٥٦-١٥٧.

المعاصرين: «طَمُوح»، و«الطُّمُوح» بمعنى الهمّ إلى نيل العلا وطلب المزيد[١٣]. وهذا مستفادٌ بالمجاز من قول العرب: «طَمَح بصري إلى الرجل: امتدّ إليه وعلا، وبحرٌ طَمُوحُ الموج: مرتفعُه، وبئر طَمُوح الماء: مرتفعةُ الجُمّة، وهو ما اجتمع من مائها».

ومنه قولهم في العربيّة المعاصرة: «شَحَذَ همَّتَه وعزيمته». ولا يخفى نقلُه بالمشابهة من قول العرب: «شَحَذَ السِكِّين: إذا أحدَّها»، فكأنّ الهمّة والعزيمةَ تُحدَّان كما تُحدُّ السكّين.

ومن ذلك ما تراه في استعمال «القراءة» وتصريفاتها، فللقراءة في استعمال المحدثين دلالة ناميةٌ مكتسبة بالمجاز لم ينصَّ عليها علماء العربية، وهي الدلالة على الوصف أو التفسير أو التحليل أو الاستنتاج أو البحث. وكلُّ ذلك من عقابيل المعنى المعروف للقراءة وتجلّياتها، فقراءة الكتاب تعني تتبُّعَ كلماته نظراً نطَقَ بها أم لم ينطق، وقراءة القرآن تعني النُّطْقَ بألفاظه عن نظر أو عن حفظ.

ومن أمثلة تخصيص الدلالة استعمال العروس للمرأة وقت عُرْسها، وتوليد كلمة «العريس» للدلالة على الرجل يوم عُرْسه، و«العروس» في العربيّة تُستعمَل للرجل والمرأة، ولا تختصّ بالمرأة.

ومنه أيضاً تخصيص «الدواجن» في زماننا بالدّجاج والطيور التي تربّى في البيوت والحقول. والدواجن في العربيّة: كلّ ما أَلِف البيتَ ولَزِمه من الشاء والإبل والحمام.

ومن أمثلة التخصيص المشهورة في العربية المعاصرة استعمال

---

(١٣) انظر: العربية تاريخ وتطوّر، د. إبراهيم السامرائي، مكتبة المعارف – بيروت، ط١، ١٩٩٣، ص١٥١.

«البُرهة» بمعنى المدّة القصيرة، خلافاً للغالب المشهور.

قال الكفويّ [١٤]: «البُرْهة: بالفتح والضمّ: الزمان الطويل، أو أعمّ. وأكثرُ استعمالها في الزمن الطويل».

ومن أمثلة انحطاط الدلالة في العربيّة المعاصرة استعمالُ كلمة «شرذمة» مصطبغةً بشيء من نبز وتنقّص. ومنها بنى المعاصرون «التشرذم» للدلالة على التفرّق والانقسام [١٥]. والدلالة المعجمية لهذه الكلمة دلالة محايدة، فالشِّرذِمةُ: القليلُ من الناس، أو الجماعة القليلةُ منهم.

وربّما كانت دلالةُ الاحتقار والتنقّص قديمةً لم تُدوَّن في المعاجم. يدعوني إلى مثل هذا القول قولُ ابن عطيّة في تفسيره [١٦]: «الشِّرذمةُ:الجمع القليلُ المحتَقَر. وشِرذمةُ كلّ شيء: بقيّته الخسيسة».

ولك أن تعرف أنّ في استعمال المعاصرين لكلمة «المؤامرة» وما دار في فلكها من تصريفاتٍ انحطاطَ دلالة؛ لأنّ دلالتها الثابتة في المعاجم هي المشاورة، ففي اقترانها في عبارة المعاصرين بمعنى الشرّ والكيد هبوطٌ من المحلّ الأرفع.

ومن أمثلة التطوّر الدلاليّ الدالّة على انحطاط الدلالة في العربيّة المعاصرة غلبةُ اقتران كلمة «بؤرة» بالفساد وما له به صلة، وكلمة «مباءة» بالانحلال والرذيلة، وهما - أعني البؤرة والمباءة - الكلمتان اللتان كانتا

---

(١٤) الكليّات، أبو البقاء الكفويّ، تح د. عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط٢، ١٩٩٨، ص ٢٤٩.

(١٥) انظر: لغويات محدثة في العربية المعاصرة، د. محمد محمد داود، دار غريب- القاهرة،٢٠٠٦، ص ١٢٣.

(١٦) المحرّر الوجيز، ابن عطيّة الأندلسي، تح عبد السلام عبد الشافي محمّد، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ٢٠٠١، ٤/ ٢٣٢.

تستعملان في العربية القديمة في مواطن الخير والصلاح، فقالوا: بؤرة أو مباءة للعلم(١٧). والبُؤرة: الحفرة والذخيرة، والمباءة: المنزل، يقال: فلان طيّب المباءة، ويقال: هو رحيب المباءة، أي سخيٌّ واسع المعروف.

ومن هذا القبيل أيضاً استعمالُ كلمة «عِصابة» للدلالة على الجماعة تنهض بأفاعيل سوء وشرّ، واستعمالُ كلمة «الاستعمار» وتصريفاتها للتعبير عن احتلال البلاد وهَضْم الحقوق واستعباد الشعوب، مفرَغَةً من دلالة الإعمار والبناء.

ومن أمثلة سُموّ الدلالة والارتقاء بها في العربيّة المعاصرة استعمالُ كلمة «الامتياز» للدلالة على أعلى رُتَب الجودة والحسن، وقد كانت تعني بدلالتها المعجميّة مجرّد الفصل بين شيئين وعزلَ أحدهما عن الآخر(١٨).

ومن ذلك إفادةُ المعاصرين من دلالة كلمة «الحَفْز» على الحثّ والإعجال، والارتقاء بها في كلمة «الحوافز» للدلالة بها في مقام التشجيع على هبات عينيّة أو مادّيّة توهب للعاملين والموظّفين للتشجيع على زيادة الإنتاج(١٩).

ومن صور التطوّر الدلاليّ تضاؤلُ أثر ظاهرة الأضداد اللغوية في استعمال المعاصرين تضاؤلاً يضاهي الانقراض، وهجرُ الكثير من المشترك اللغويّ(٢٠).

---

(١٧) معجميات، د. إبراهيم السامرائي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت، ط١، ١٩٩١، ص ٢٨، ٣٤.

(١٨) التغيّر الدلاليّ في معجم الصواب اللغويّ لأحمد مختار عمر، دو ميلود، رسالة ماجستير، جامعة وهران١ – أحمد بن بلّة، كليّة الآداب والفنون، ٢٠١٦، ص ١٣١.

(١٩) انظر: العربية تاريخ وتطور، د. إبراهيم السامرائيّ، ص ١٠٨.

(٢٠) انظر: خصائص في العربية وإيذانها بالزوال من لغتنا المعاصرة، د. فاروق مواسي، مجلة جامعة، ع ١٢، ص ١٦٩–١٧٠.

*** التطوّر التركيبيّ:**

للتطوّر اللغويّ في بنية الجمل والتراكيب في العربية المعاصرة حضورٌ لا يخفى على متأمّل. وبعض مظاهر هذا التطوّر تعبّر عن تطوّر خارجيّ كان بأثر من اللغات الأخرى.

- فمن مظاهر التطوّر اللغوي التركيبيّ في العربيّة المعاصرة تصدُّر المفعول لأجله الجملةَ. فأنت اليوم تسمع وتقرأ، وقد تقول: **تلبيةً** لدعوة فلان قام بزيارته؛ و**رغبةً** في تعزيز العلاقات قام بزيارة السودان،......

وهذا من الشائع المعروف الجائز الذي لا نجد في قواعد العربيّة ونصوص العلماء نصّاً عليه أو إشارة إليه، كما لا نجد في كلام القدماء فيما انتهى إلينا ما يدلّ على استعمالهم له. وقد رأى بعض الباحثين دون حرج أو تردّد أنّ هذا الأسلوب من قبيل التأثّر بالأساليب الأجنبية المترجمة، وأنّه «يسير على نمط الجملة الإنجليزية التي تبدأ بـ (gerund)»[(٢١)].

ومن صور التطوّر اللغويّ في المستوى التركيبيّ في العربيّة المعاصرة كثرةُ تقدّم الجارّ والمجرور في الجملة وعودة الضمير من شبه الجملة على متأخِّر، فمن هذا الشائع الكثير قولُهم: **من جانبها** قالت وزيرةُ الشؤون الاجتماعية...، وقولُهم: **عن ارتفاع أجره** قال الممثّل......

وهذا ممّا عاد فيه الضمير في شبه الجملة على متأخّر لفظاً متقدّم رتبةً، وهو جائز. بيد أنّ شواهد هذه الصورة في كلام العرب قليلة. ومن ذلك هذه الأمثال العربيّة القديمة: **على أهلها** جَنَتْ بَراقِشُ. **في بيته** يُؤتى الحَكَمُ. **مِن مأمَنِه** يُؤتى الحَذِرُ[(٢٢)].

---

(٢١) العربية الفصحى المعاصرة وأصولها التراثيّة ، د. عباس السوسوة، دار غريب - القاهرة، ٢٠٠٢، ص ١٤١-١٤٢.

(٢٢) المصدر السابق ، ص ١٥٢-١٥٤.

ومن صور التطوّر التركيبيّ الظاهرة العُزوفُ عن المفعول المطلق، والاستغناءُ عنه بشبه جملة من جارّ ومجرور يكون فيه المجرور موصوفاً بوصف مناسب، فيقولون: تكلّم **بشكلٍ جيّد**، أو **بصورة جيّدة**، أو كتب مقالته **بشكلٍ سطحيٍّ**. ولو أخذوا أنفسهم بالغالب في كلام العرب لاستغنوا عن شبه الجملة، ولاستعملوا المفعول المطلقَ، فقالوا: تكلّم كلاماً جيداً أو حسناً، أو كتب مقالته كتابة سطحيّة.

وبعض صور التطوّر دالّة على أثر اللغات الأجنبيّة والترجمة الحرفيّة عن تلك اللغات، أو على شيء من أثر العامّيات العربيّة المعاصرة، وهو يسير. فانصراف العربيّة المعاصرة شيئاً فشيئاً عن صيغة المبنيِّ للمجهول إلى أفعال المطاوعة، من كُسِرَ مثلاً إلى انكسر، ومن هُزِم إلى انهزم، فيه عندي شيءٌ من أثر العامّيات المعاصرة؛ والاستغناءُ عن الفعل المبنيِّ للمجهول بالفعل «تمّ» يُسنَد إليه المصدر، نحو: تمّ الحفظ، المستغنى به عن «حُفِظَ»، وتمّت الكتابة، في مقام «كُتِب» = من أثر الترجمة الحرفيّة عن اللغات الأجنبيّة(٢٣).

ومن الصور التركيبيّة التي يلحظها المتأمّل في العربيّة المعاصرة، ولا يرى لها أثراً في استعمال القدماء، ذلك التركيبُ الذي تتقدّم فيه الجملةُ الاسميّة الحاليّة المقترنة بالواو والمصدّرة بالضمير، على صاحب الحال والعامل فيها، نحو: «**وهي في المطبخ**، جاءها صوت بكائه، ليس كالبكاء،..». وهو ما قد نصّ بعضُ الباحثين على أنّه من الأنماط التركيبيّة

(٢٣) كنت أظنّ هذا الوجه من الاستعمال كما يظنّ بعض الباحثين ثمرةً من ثمرات الترجمة الحرفيّة؛ ثمّ بدا لي أنّ له أصلاً موروثاً من زمن سابق ينتهي بنا إلى القرن الخامس أو السادس. على أنّ من سمت المحدثين في ذلك الإكثارَ منه.

الشائعة التي استحدثَتْها العربيّةُ المعاصرة(٢٤).

وهذا النمط كما يدلّ البحثُ ممّا أجازه الكسائيّ والفرّاء وهشام، أجازوا: وأنت راكبٌ تحسُن، وأنت راكبٌ حسُنت، تريد: تحسُن، وأنت راكبٌ؛ وحسُنت، وأنت راكبٌ(٢٥).

ولا يبعد عندي أن يكون استعمال المعاصرين هذا من أثر بعض العامّيات المعاصرة، فإنّ ذلك معروف فيها، ومن أقوالهم: «**وأنا راجع**، صادفته، **وهو راكض** بالطريق، تعثّر».

- وترى في لغة الكتاب والمتكلّمين في العربيّة المعاصرة ميلاً إلى الاستعانة بالوسائط في التعبير عن مرادهم، دون حاجة. ومن تلك الوسائط الأفعال المساعدة وتصريفاتها، فيقولون: مارس التعليم، ويمارس التمثيل، وقام بسؤاله، وتقدّم بالتهنئة، ويتوجّه بالتحيّة،.... إلخ. ولو تمكّنت منَ القائل روح الإيجاز العربيّةُ لقال: علَّمَ، ويمثِّل، وسألَه، وهنَّأه، وحيَّاه.

وربّما كان في تراثنا العربي شيءٌ من بعض ذلك يسير، لكنّ الظاهر في العربيّة المعاصرة كثرةُ ذلك كثرةً ربما كان وراءها مضاهاةُ ما تجري عليه بعض اللغات الأجنبيّة، مع الرغبة في دلالة التفخيم التي تبدو للمعاصرين في التمهيد للشيء بما هو فضلة أو تُكأة. وفي ذلك ما يدعو المرءَ إلى القول بضعف الإحساس ببلاغة الإيجاز والاختصار وبيانه في زمن كانت الفضفضةُ فيه في المظهر والشكل والحيازة، بمنأى عن التقشُّف والاقتصاد، ظاهرةً طاغية.

---

(٢٤) خصائص العربية المعاصرة ، د. محمد حسن عبد العزيز، مجلة اللسان العربي، ع ٤٥ ، ١٩٩٨، ص ١٦٠.

(٢٥) انظر: التذييل والتكميل، أبو حيان الأندلسي، تح د. حسن هنداوي، دار كنوز إشبيليا – الرياض، ط١، ٢٠١٠، ٩/ ٩٣.

وهذا ممّا يدلّ على فقدان كثير من متكلّمي العربيّة في هذا العصر الحسَّ اللغويَّ أو تلك الملكةَ الدقيقة التي تجنّبهم وضع اللفظ في غير موضعه، وتصون كلامهم من الحشو والفضول، وترتفع به عن الهذر والتطويل. وهذا ممّا جرّ على العربيّة المعاصرة ظاهرتين خطيرتين: إحداهما انعدام الإيجاز، والأخرى انعدام الدقّة(٢٦).

ولا يحسن بالباحث في هذا المقام أن يغفُل عن ذلك النمط من التراكيب التي ولّدها المعاصرون، أو ترجموها من اللغات الغربيّة، وعلا أكثرها مَسحةٌ من مجاز، فكانت أساليبَ محفوظةً تُستعمَل كالأمثال، نحو: يبكي بكاءً مرّاً، ودموع التماسيح، والعين المجرّدة، وذرّ الرمادَ في العيون، ويصطاد في الماء العكر، وجرح شُعورَه، ويسمّم الرأيَ العامّ، وعاصفة من التصفيق، والجنس اللطيف، ورَجُل الساعة، وفي خندق واحد، والخلايا النائمة، والمجتمع المُخمليّ، والأقلام الصفراء، والكتب الصفراء، والصحافة الصفراء، وزوبعة في فِنجان، والجيل الصاعد، والقطط السِّمان،....

ولا شكّ في أنّ أكثر هذه الأمثلة، ومثلُها كثيرٌ، وليدُ الترجمة، وأنّ العربيّة بسماحتها ولينها وطواعيتها استوعبتها، ولم تتنكّر لها، فقبلها الاستعمالُ وراضها، حتى إنّه ليتوهّم القارئ، وهو يقرأ ذلك، أنّه عربيٌّ لم يعتوره دخيل(٢٧).

---

(٢٦) العربيّة المعاصرة والحسّ اللغويّ، د. نعمة رحيم العزاوي، مجلة الذخائر - بيروت، ع٤، ٢٠٠٠، ص٨.

(٢٧) انظر: معجم ودراسة في العربيّة المعاصرة، د. إبراهيم السامرائي، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، ط ١، ٢٠٠٠، ص ١-١٢، والمفيد، د. محمد رضوان الداية، الهيئة العامة للكتاب - دمشق، ٢٠١٥، ص ١٧، ٦٥، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٦١، ٢٢٤، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٤٢، ٣١٩، ٣٤٧.

هذه إطلالةٌ عامّةٌ على ما كان في العربيّة المعاصرة من تطوّر في مستوياتها جميعاً، ألمّت بشيء من مظاهره وصوره. ثمّ إذا كان لي أن أُبيِّن بعضَ ما أملاه عليّ النظرُ في هذا التطوّر ومظاهره قلتُ:

١ - التطوّر سنّةٌ من سنن اللغة، ومنها العربيّة، وهو فيها على اختلاف مراحلها، ومنها المرحلةُ المعاصرة، حتميّ وطبيعيّ. وهو مظهرٌ من مظاهر تطوّر مستعمليها. وذلك التغيير في كثير من جوانبه يجعل العربيّة المعاصرة قادرة على الوفاء بمطالب التعبير عن ثقافة العصر وعلومه وحركة المجتمع، ويشهد لها بمرونة واضحة وتوسّع محمود وانفتاح على العالم.

٢- إذا كان لك أن تقدّر في كثير ممّا ابتدعه المعاصرون وجرى على أقلامهم وألسنتهم، وحرّكتْه أفكارهم وتقديراتهم من صور التطوّر اللغويّ = حاجةً وغايةً وسعياً صحيحاً واجتهاداً، فإنّ بعض ذلك لا يتعدّى أن يكون ضرباً من تَرَف القول وباذخه، يُضرَب له سُرادقُ من تجريب، وفي التجريب أحياناً يُعشِب اللهو والعبث. فما تقول فيما ولّدَتْه قريحةُ بعض الكتّاب من نحو: يتألهنُ الإنسان، ويُلفظن الفكرَ، ويُفكرن اللفظَ، من مولّدات كانت كما وصفها د. إبراهيم السامرّائي[٢٨] جزءاً من «لغة هزيلة تتعثّر في تَيهاءَ مُضِلَّة بين المولّد الجديد التافه وبين المصطلح العلميّ الفنّي الذي لا يقوم على أساس»؟!.

٣- لا شكّ في أنّ الخطأ الظاهر الصُّراح لا وجه لتزيينه، وليس لنا أن نصنّفه في حظيرة التطوّر. فأيّ تغيير يمكن أن يهدم التصوّرَ الإعرابيَّ الثابت للغة العربيّة، فيفضي مثلاً إلى جرّ المنصوب ورفع المجرور ونصب المرفوع، ليس من التطوّر المعتبَر في شيء. وتأنيثُ ما لا وجهَ لتأنيثه من أسماءٍ إلّا

(٢٨) دراسات في اللغة ، د. إبراهيم السامرائي ، بغداد ، ١٩٦١ ، ص١٧٧.

التوهّمُ والقياس الخاطئ من هذا القبيل. فلا ينبغي أن يُقبَل لهذا تأنيثُ كلمة «مستشفى» وكلمة «رأس»، وهما المذكّرتان؛ ولا ينبغي تذكيرُ كلمة «بئر»، وهي المؤنّثة. وليس من السائغ تأنيثُ كلمة «درب» في نحو قولهم: «درب طويلة»؛ وهي المذكّرة؛ سواء أكان مصدرُ تأنيثها في العربية المعاصرة قياساً على ما كان التأنيث فيه جائزاً من مرادفاتها نحو: طريق وسبيل وصراط وسكة وزقاق، أم كان تأثّراً بجنس الكلمة في بعض اللغات الغربيّة. ومنعُ صرف ما كان من الجموع على وزن «أفعال» نحو: أنحاء وأسماء وأبناء وأنهار وأسباب.... ضربٌ من الخطأ الذي قاد إليه التوهّم والقياس الخاطئ على كلمة «أشياء» لا يجوز أن نسِمَه بالتطوّر، وأن نتسمّحَ فيه.

٤- ومن هنا لك أن تقول: إنّ التطوّر المعتبَر هو التطوّر الذي يتحرّك بين حدّيِ النظام والحرّيّة. على أنّه ليس من الحكمة أن تستغلّ غيابَ الشيء عن مدوَّنة العربيّة القديمة، وسكوتَ القاعدة عنه، وتتخذَهما سيفاً مُصْلَتاً تمنع به كلَّ جديد وتنكرُه. وليس من العدل أن تتدثَّرَ بالحريّة لتزيّنَ للناس ممارساتٍ لغويّةً عشوائيّةً تُغرقنا في بحر من الفوضى.

٥- من واجب الخبراء اللغويّين والمؤسسات اللغويّة، ومنها المجامع، ضبطُ التطوّر اللغويّ المعاصر وتصحيحُ ما انحرف من مساراته، ولا سيّما ما كان منه تطوّراً عفويّاً. ومن مقتضيات ذلك النظرُ في مدوّنة اللغة العربيّة الفصيحة المعاصرة ورصدُ مظاهر التطوّر فيها، ودرسُها وغربلتها في إطارٍ علميٍّ محكمٍ معتدلٍ بعيد عن التشدّد والتنطّع مصونٍ من الترخُّص إلى حدّ التسيُّب والتفلُّت، للانتهاء إلى تشريعات وأحكام لغويّة مناسبة وتوجيهات سائغة.

٦- اللغة العربيّة بروحها وأصولها وواقعها المتحقّق والممكن، أيِ: الموجود بالفعل والموجود بالقوّة، تدلّنا على إمكانياتها التي لا تُحدّ،

والاستعمالُ اللغويّ المعيش يفرض علينا شروطَه. ومن ثمّ كان على رؤيتنا أن تواكب حركةَ اللغة والمجتمع والحياة، وأن نتخفَّف من أغلال المعياريّة التي لم تُنتِجْها اللغةُ نفسُها، بل أنتجها فكرٌ مقيّد بزمن معيّن، واختلف الناسُ في فهمها. والتغيير الذي لا ينقض شيئاً من ثوابت العربيّة وقواعدها في مستوياتها كافّة ينبغي أن نستوعبه ونُفيدَ منه في تشريعاتنا وتنمية لغتنا وسدّ ما نحتاج إليه في التعبير عن المستجدّات.

٧- ومن هنا ينبغي أن تكون نظرتنا إلى التطوّر اللغويّ المعتبَر في لغتنا العربيّة نظرةً علميّة عارية من مشاعر الارتياب والتوجّس، ومن أفكار الخطأ واللحن والخروج على اللغة وانتهاك قواعدها، تلك الأفكار والمشاعر التي ما زالت تستبدّ بفكر كثير من الباحثين والعلماء ورؤاهم، وتستنفِرهم لرفض عشراتِ، بل مئاتِ الألفاظ والمصطلحات والتراكيب التي ولّدها التطوّرُ القَصْديُّ أو العَفْويّ لسدّ الحاجة والنقص في التعبير عن مستجدّات الحياة ومتغيّرات الزمن. فالتطوّر ينبغي الاعترافُ والاعتداد به وتهذيبُ ما بدا فيه من شوائبَ. ومن كان على خلاف ذلك كان فيه ما يحتاج إلى صِيانة.

٨- فُسحةُ الجواز أو الممكِن والمُباح في اللغة العربيّة عند التحقيق أوسعُ من تلك المِساحة التي تُحصَر بين تقليد المسموع والقياس عليه. فكلُّ ما لم يعارض أصولَ العربيّة، ولم ينتهك قواعدَها وثوابتَها جائزٌ مُباح، وإن كان مترجماً. والترجمةُ الحرفيّة عن اللغات الأجنبيّة في ذاتها ليست سبباً داعياً لمنع أو تخطئة العبارة التي تُرجمت، ما خَلَتْ من الخطأ أو ممّا لا يصحّ في العربيّة، وإن كان المناسبَ أو أنسبَ ما يكون أن تُراعَى المعادلاتُ الصوتيّةُ والصرفيّة والتركيبيّة والأسلوبية للغة العربيّة التي يُترجَم إليها من اللغات الأخرى.

* * *